Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 23:4 (1988

مستقبل الاجتهـــاد

رجاء غارودى

لقد أقام الشيخ ابن باديس الدليل بالمثل الذى ضربه على أن العودة الى مصدرى التشريع اقتفاءا للسلف الصالح لايعنى أنه يجب علينا أن نوغل فى المستقبل بالرجوع القهقرى والتمسك بالماضى وحده .

كلا، وانما يعنى أن مبادئ القرآن والسنة النبوية التى تبين لنا كيفية تحقيق هذه المبادئ فى حياة الانسان تتيح لنا امكانية اعطاء اجابة اسلامية على المسائل المستحدثة التى تطرحها التحولات التاريخية التى ليس لها نظير فى عصرنا الحالى .

واذا قلنا ان التحولات ومشاكل عصرنا ليس لها نظير مثل مشاكل النمو والتخلف ومشكلة امكانية الانتحار النووى أو الانتحارية ان صح التعبير على مستوى المعمورة، وقضايا الشركات المتعددة الجنسيات، وتوازن الرعب والارهاب، ومشاكل الاستلاب الثقافى التى يطرحها النموذج الغربى، فهذا يعنى أننا لانستطيع ايجاد حل لأى منها عن طريق التقليد .

ان الاجتهاد ليطلب اليوم مجهودا جديدا لمحاربة ضربين من التقليد .

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

تقليد الغرب الذى يتمثل فى الخلط بين العصرانية ونمط الحياة فى الغرب، وتقليد الماضى المتمثل فى الخلط بين الشريعة والفقه .

ان تقليد الغرب ونموذجه فى النمو وفى الثقافة سم قاتل لجميع حضارات العالم، وان حصيلة خمسة قرون من الهيمنة المطلقة التى فرضها الغرب لتبين مدى المازق الذى قاد العالم اليه.

كما أن نموذج الثقافة المقبل لهذا النمط من النمو الافلاس ويثبته ويجل به .

لذلک كان كل اجتهاد ينبنى على تقليد الغرب مآله الى الفشل والى هدم مبادئ الاسلام ذاتها، وهذا فى جميع الميادين، وفى مجال العلوم والتقنيات أولا.

لامجال أبدا لانغلاق العالم الاسلامى على علوم الغرب وتقنياته، ونحن نعلم أن الغرب قد استمد الطريقة التجريبية من العلوم العربية الاسلامية أيام ازدهار جامعة قرطبة الاسلامية.

غير أن هذا الاستيعاب لايمكن أن يكون مجرد تقليد لاغير، بل ان دمج علوم الغرب وتقنياته لكى تستخدم فى سبيل ازدهار العالم الاسلامى لايمكن الا أن يكون انتقائيا وقائما على النقد والتمحيص.

لأنه لاوجود لأى عملية ,, نقل تكنولوجيا،، بريئة، فقد تطورت علوم الغرب وتقنياته تبعا لحاجات الغرب ، حاجاته الاقتصادية ، وحاجاته العسكرية، ونظرته الى الانسان، وليست هذه الحاجات حاجات لنا، وليس هذا التصوير للانسان بالتصوير الذى نذهب اليه نحن المسلمون.

لقد أخذت أوروبا فى مجال العلوم والتقنيات عن العلوم العربية الاسلامية منهجها التجريبى الذى حررها من الطريقة التعليمية التقليدية الموروثة عن الاستدلال العقلى الاغريقى، الا انها لم تأخذ

بجوهر هذا العلم المتمثل فى الصلة بين العلم والحكمة، والذى لايفصل بالمنظور الاسلامى بين البحث عن الاسباب والبحث عن الغايات ، والعلاقات بين الأشياء فيما بينها، وبين الله، الذى تشكل آية من آياته، والذى يعطيها معنى، ومن ثمة فان العلم الغربى، وهو عمل من أعمال العقل السقيم المنور من بعده المتسامى، لم يطرح أبدا سؤال ,, لماذا ،، بل اقتصر على سؤال ,, كيف ،، ، كيف نصنع قنبلة نووية ؟ وكيف الوصول الى القمر كذلك؟ بدلا من أن يتساءل، أولا، لماذا نصنع مثل هذا السلاح؟ ولماذا نصعد الى القمر؟ ألم تكن هناك أولويات انسانية وربانية أخرى ننجزها بنفس الاستثمارات المالية المخصصة للبحث العلمى والتقنى؟

هكذا سخرت أبرع مكتشفات العلم والتقنية المجردة من أى غاية انسانية وربانية لارادة الحصول على النمو وعلى القوة، وقانون الغابة فى التعامل بين الأفراد والجماعات والأمم، وضاعت معانى هذه الوحدة الربانية والانسانية من الحاجات الحقيقية للمعمورة فى مجموعها، وهكذا تحول العلم الى النزعة العلمية، وآلت التقنية الى التقنوقراطية، والسياسة الى الماكيافيلية لانعدام الهدف والغاية.

ان أعمق أزمات الحضارة الغربية هى أزمة المعنى، فهى لم تعد تطرح لافى صورتها الرأسمالية ولا فى صورتها السوفياتية مشكلة المعنى الأخير للحياة وللموت وللقصد الربانى ,,وللطريق المستقيم،، الذى يدعوا الانسان اليه.

ان من أكبر مهمات الاجتهاد والشريعة، التى تحمل كبريات مشاكل عصرنا لتتمثل فى اضفاء طابع اسلامى على العلوم ، وبعبارة أخرى، وضع فلسفة اسلامية حقيقية لاتنحصر، كما هو الشأن بالنسبة الى الفلسفة الغربية للعلوم، فى نقض المعرفة، وفى تفكير لايتناول الا

امكانيتها ومنهاجها ، بل يجب أن تتناول غاياتها فى المقام الأول، والأهداف التى يجب أن تناط بالبحث العلمى لكى يسخر لازدهار الانسان لالتدميره.

ان المشكلة الأولى لتتمثل فى ربط العلم الوضعى الذى هو اكتشاف الوسائل بالحكمة التى هى البحث عن الغايات، وارتفاع الغايات الدنيا الى غايات اسمى، تسعى الى الغاية النهائية، فنقد المعرفة اذن سيكتسى معناه الحقيقى عندما لايقتصر على ربط العلم بالحكمة، بل بربط الحكمة بالوحى، ذلك لأن العلم فيما يسعى اليه من البحث عن الاسباب ، والحكمة فيما تنشده من الغايات كلاهما عاجز عن بلوغ السبب الأول وعن بلوغ الغاية القصوى.ان الايمان يبدأ حيث ينتهى العقل وليس قبل أن يسخر العقل الكلى، وأعنى به البحث فى آن واحد عن الأسباب والغايات، ابحاثه يستخدم جميع قواه، غير أن هذه الحركة فى حرياتها المطلقة تحمل العقل على ادراك مدى حدوده ومسلماته فى آن واحد .

وهنا يتدخل الايمان، فالوحى يحل محل العلم والحكمة لالكى يحد منهما أو يعارضهما، بل لكى ينير لهما السبيل فالايمان عقل لاحد له .

ان اسلامية العلوم هذه أمر ضرورى لمساعدة العلوم الطبيعية على إدراك هدفها ، ومساعدة العلوم المعروفة بالعلوم الانسانية على الوعى بمسلماتها، فالاقتصاد السياسى الغربى مثلا (فى صورتيه البرجوازية أو الماركسية المزعومة) ليس علما حتى ولو كانت الكتب مفعمة بالمعادلات وبجهاز رياضى كبير، وان هى الا ايديولوجيات وضعت لاثبات مذهب يخفى مسلماته، أى تصوره للانسان، والاقتصاد السياسى أوالمعروف بالاقتصاد السياسى التقليدى ينظر الى الانسان

فى تصوره له على أنه كائن لاتحركه الا مصالحه الشخصية فهو قائم على تصور يحط من قيمة الانسان. ان هذا ,,الانسان الاقتصادى،، الذى لاينظر اليه الا باعتباره منتجا ومستهلكا انما هو عكس ,,الانسان الاسلامى،، بل ان الاقتصاديين الماركسيين أنفسهم لينقدون العالم البرجوازى لذلك، ان الملكية ـ كما عرفها القانون الرومانى ـ تخول المالك الفردى حق الانتفاع والمنفعة، بينما الملكية فى مفهوم الاسلام هى وظيفة اجتماعية أى أن مصالح الفرد تابعة على الدوام لمصالح الجماعة.

وانطلاقا من هذا المبدأ الأساسى من مبادئ القرآن فى المجال الاقتصادى تأخذ ادانة الربا معنى أوضح. ومن العبث أن نمضى بعيدا فى الجمل والاستدلال بحثا عن الفرق بين ,,الفائدة،، و ,,الربا،، ، وأن نذهب فى استنتاجاتنا الى مالا نهاية له لكى نعرف متى تتحول الفائدة المشروعة الى ربا، أو أن ندعى أن الفائدة المتولدة هى وحدها الفائدة المنكورة.

لقد كان من السهل أن نحدد التبادل غير المتكافئ أو الربا فى اقتصاد تسود فيه طريقة المقايضة فى التعامل كما كان الشأن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان الناس يتبادلون الحنطة بالحنطة، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، أو الذهب بالذهب، ولكن المشكلة تغدو معقدة عندما نكون بصدد اقتصاد يقوم على التعامل بالنقد والعملة، على الرغم من أنه من الميسور أن نحدد عن طريق القياس اعتمادا على تعاليم القرآن وسنة الرسول مبادئ اقتصاد لايقوم على الربا، ان لم نستطع تحديد تقنية لمثل هذا الاقتصاد فالأمر المنكور هو أن يتسبب المال فى عاطلين عن العمل، وان يستخدم المال ـ كما هو الشأن فى زمننا هذا، لاكمجرد رمز للقيمة فحسب، بل كبضاعة . ان

تحليلات ماركس فى موضوع هذا التحول، وهذه ,,الفيتيشية،، أو ,,وثنية،، البضاعة بكل مايترتب على ذلك من ,,استلابات،، للعمل وللانسان، لايمكن أن تساعدنا على تعميق التفكير الكلامى فى الاقتصاد.

كذلك الأمر فى الميدان السياسى حيث ان استعمال المفاهيم والكلمات التامة التجهيز انطلاقا من التجارب الغربية لايمكن أن تساعدنا على تحليل الواقع الاسلامى ولا على تحديد آفاقه أو رسم مستقبله. فليس لفكرة ,,الثيوقراطية،، من معنى الا بالقياس الى التجربة التاريخية للعصر الوسيط الاوروبى حيث كانت الكنيسة تمارس السلطة السياسية أو تتوق الى ممارستها، فهى لاتحمل نفس المعنى فى مجتمع اسلامى ينفى وساطة رجال الكهنوت من حيث المبدأ، بين الانسان وربه، وفكرة الديمقراطية ترجع الى التاريخ الانكليزى أو الى الثورة الفرنسية حيث لايتألف المجتمع الا من أفراد أو مجموعات أفراد متنافسين، مع اعتبار السلطة محصلة حسابية واحصائية لأصوات هؤلاء الأفراد أو الجماعات .

وليس لهذه ,,النزعة البرلمانية،، أى علاقة بالشورى، لأنها تتجاهل من حيث المبدأ ناحية السمو الروحى فى الانسان، وصلته بربه، مستعيضة عن ذلك موازين العدد أو القوة بين المصالح المتنافسة أو المتعارضة، ان الصورة الاشتراكية لهذا التصور الغربى لتقوم على نفس ,, الالحاد،، مع فرق واحد هو أن ,, الاشتراكية،، السوفياتية تنادى بهذا الالحاد فى الواقع، بينما تمارسه الرأسمالية دون أن تجاهربه بل وتخفيه تحت أقنعة ذات صبغة روحية منافقة.

وماذا نقول أخيرا عن ثقافة غربية يحرص أشهر أساطينها وأعنى بهم الذى يحظون برواج لدى و سائط الاعلام، وبتواطؤ من جماعات

الضغط والسلطات، على اقناع الشباب بأن الحياة والتاريخ لامعنى لهما؟

ليس للاجتهاد أن يستمد أى درس من فلسفة حفار القبور هذه، ومن السفسطائيين الذين يحاولون اقناع الناس بموت كل شئ .

اذا كان الاجتهاد والشريعة القادران على امدادنا بحلول لمشاكل عصرنا ليس لهما مايقتبسانه من تقليد الغرب ومن الالتباس القائم بين التحديث والتغريب، واذا كان الاسلام قادرا على أن يجد فى ذاته وفى أسسه مبادئ تجديده وقواه، فانه لايكسب شيئا أبدا من أى رجوع الى ماض قد يخلط بين الشريعة والفقه .

ان الشريعة وأعنى بها القرآن الكريم والسنة النبوية اللذين يقدمان لنا أمثلة عن تحقق هذه المبادئ فى التاريخ وتمثل فى نظر كل مسلم، نداءا خالدا فى كل مرحلة الحياة الشخصية للعالم الاسلامى وتاريخه.

لقد حرص كثير من الفقهاء الكبار، لاسيما فى القرون الهجرية الأولى، عندما انتقل الاسلام من جماعة صغيرة بالمدينة الى امبراطورية عظيمة، وعندما واجهتهم مشاكل مستحدثة فى جميع الميادين الاقتصادية والسياسية والثقافية، على ايجاد حلول لهذه المشاكل ، مستلهمين لتحقيق الأهداف المرسومة فى القرآن، أمثلة أعطاها الرسول فى مجتمع مختلف تمام الاختلاف، ومستخدمين القياس فى ذلك.

وهذه السنة فى التشريع وهذا الفقه، ثروة لتفكير كل مسلم، لأنها تعج بأمثلة تطبيقية عملية للمبادئ القرآنية فى حل مشاكل تاريخية ملموسة.

غير أن كل فقيه سعى فى ظل القرآن والسنة النبوية الى حل مشكلات عصره لامشكلاتنا نحن ونستطيع فى أحسن الحالات أن

نحذو حذوهم فى منهجهم الابداعى، لا أن نكرر استنتاجاتهم، خاصة وأن كل فقيه من كبار فقهاء العصر الماضى كان مطبوعا بطابع زمانه الى درجة الغفلة أحيانا عن مبادئ الدين ذاته، فلقد كان الماوردى مثالا للحرص على ايراد الشواهد لتبرير سلطة العباسيين المطلقة ماجعله يغفل مبدأ الشورى الذى أمر به القرآن وينسى أن يعده من بين واجبات الخليفة.

ومنذ عشرة قرون، تراكمت وترسبت الشروح وشروح الشروح الى درجة أنها أصبحت حاجزا بين مبادئ القرآن البسيطة وتجسيدها بالشريعة وبيننا نحن.

وقد انتهى بنا الأمر ـ كما كتب الشيخ ابن باديس فى نقده للتعليم فى الزيتونة فى مطلع هذا القرن ـ الى الاقتصار على دراسة تفاسير القرآن التى يعود أحدثها عهدا الى القرن الرابع عشر، والى ترديد هذه الشروح والتعليق عليها بدلا من التفكير فى مشاكل الساعة على ضوء القرآن والسنة النبوية الشريفة .

ان قراءة القرآن فى حد ذاتها قد شابها الغموض والتعقيد تحت وطأة ألف سنة من التأويل بينما تستعيد هذه القرآءاة صفاءها ونصاعتها ومطابقتها الدائمة للعصر بالاحتكاك بالواقع الملموس ومشاكله.

واننا لواجدون فى القرآن ذاته مفتاح هذه القرآءة الواعية لكتاب الله الميسور الفهم الذى يتجه الى جميع الناس، والصالح لكل عصر بالنظر الى رسالته الأبدية.

أولا لانسخ ورد فى القرآن،ان الله يخاطب عباده بضرب الأمثال، لأن الخالق الذى ليس مثله شئ والمتعالى عن كل ماسواه لايمكن أن تدركه الحواس ولا الافهام،

ثانيا إن كبار مفسرى القرآن الأولين قد علمونا الأسباب التاريخية لنزوله كجواب لكل مشكلة واقعية من مشاكل الأمة . وعلى

ذلک فان کل تدخل لله فی حیاة الناس یحمل هذا الطابع التاریخی. والله دائم التدخل فی حیاتنا، ولذلک تتجلی أبدیته دائما فی التاریخ.

فنحن مسؤولون اذن علی الدوام بقراءة هذه الآیات لاعن طریق تمسکنا بحرفیة عمیاء تفصل الأبدي عن التاریخ والواقع، بل بالرجوع فی کل حادثة جدیدة الی الروح التی کانت تقف وراء کل تدخل سابق للإله.

ثالثا وهذا یقتضی ألاّ نفصل أبدا أیّ آیة من آیاته عن سیاقها التاریخی، بل أن نزید علی العکس فی ذلک معناها وضوحا علی ضوء القرآن فی کلیته وعلی ضوءمعناه العمیق والوحید.

وأخیرا فان هذا الوحی القرآنی ذاته لایمکن أن نفصله عن **الکتب السماویة السابقة** التی جاء فی القرآن مرات عدیدة أنه لایلغیها بل یؤکدها بتخلیصها مما لحق بها من تحریفات تاریخیة. وقد ورد بصریح العبارة فی القرآن أن الکتب المنزلة السابقة فیها ذکر لنزول آخر هذه الکتب وبیان له .

وهکذا یمکننا ان نجد فی القرآن ذاته وفی الاحادیث الصحیحة التی لاتقبل أسانیدها أی تجریح أو نقد مایوفر لنا فی أی حادثة لم یسبق لها شبیه أو نظیر، مبادئ لحل مشاکلنا، لاتفضی بنا الی المأزق الرأسمالی ولا الی المأزق السوفیاتی.

ان القرآن لیبین لنا الغایة النهائیة، والصراط المستقیم، ثم یترک للانسان، خلیفة الله فی الأرض مسؤولیة البحث فی کل حقبة وعصر عن **الأسباب التاریخیة لبلوغ** هذه الغایة النهائیة.

وهذا یتطلب مع الابتعاد عن کل محاولة لحصر الاجتهاد فی فئة قلیلة معینة، أن نجعل هذا الاجتهاد قضیة تهم (الاختصاصیین) المرتبطین بالسلطة کما کان علیه الشأن فی العهدین الأموی والعباسی

وان لانقرأ القرآن بعيون الأموات، فلايستطيع أكبر فقهاء العصرين الأموى والعباسى ومتكلميهم ان يحلوا محلنا فى ايجاد الحلول لمشاكلنا. فنحن مسؤولون كامل المسؤولية عن تاريخنا.

لقد أفلس الغرب بعد خمسة قرون من الهيمنة المطلقة، وهاهو يقودنا الى الهلاك. وسيستعيد الاسلام حظوظه فى الانتشار العالمى كسالف عهده أيام أزدهاره، يوم يدرك الغربيون فى غالبيتهم هذا الفشل التاريخى الذى منى به نموذجهم فى النمو وفى الثقافة على غرار مايفعله بعضهم الآن. فعليه أن يتأهب اذن ليتقلد هذه الخلافة التاريخية.

أولا بتوجيه نقد لاذع وبناء لغايات علوم الطبيعة فى الغرب ولمناهج العلوم والدعوة بالعلوم الانسانية ليتعلم كيف ينظر الى العالم والى تاريخه ومستقبله نظرة اسلامية، وباعطاء صورة عن اسلام حى شبيه بالاسلام فى فجر أيامه، الذى انطلق لفتح العالم فتحا روحيا، فالعودة الى هذه الحركية والى روح المبادرة هذه، انما تعنى العودة الى روح الاجتهاد كما تصوره الرسول عليه الصلاة والسلام والمتمثل فى الوحدة التى لاتتجزأ بين المبادئ الخالدة للرسالة وتطبيقها الحىّ لبناء مستقبل عالم يجدد الله خلقه على الدوام.